

مدارس توات العتيقة وإسهامها في الدرس العروضي

محمد بن أب المزمري أنموذجاً

د. عبد الله عماري

المركز الجامعي تامنغست

a.ammari1984@yahoo.com

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2020/01/05	2019/08/04	2019/05/15

الملخص : يسعى هذا المقال إلى إلقاء الضوء على إسهام مدارس توات العتيقة في الدرس العروضي مُتخذاً من محمد بن أب المزمري أنموذجاً ، مُقدّماً في ذلك تعريفاً موجزاً لمدارس توات العتيقة ، وطرق التدريس بها، ومعرّجاً على نبذة من حياة المزمري وطريقته في التدريس ، وصولاً إلى إسهامه في الدرس العروضي .

الكلمات المفتاحية : المدارس العتيقة ، العروض ، ابن أب ، المزمري.

Abstract

This paper is seeking to highlight the contribution of Tuat's ancient schools in the metrical lesson having Mohammed ben Aubba almozamiri as a case study. The paper presents a brief introduction of Tuat's ancient schools as well as the methods of teaching therein. The paper also gives a short biography of Almozamiri and highlights his way of teaching, finishing off with his contributions in the metrical lesson.

key words : Old School, presentations, Mohammed ben Aubba almozamiri

مدارس توات العتيقة :

توات هي اسم بربري أطلق على الواحات¹، وهي منطقة عريقة تقع في جنوب غرب صحراء الجزائر، وتمتد جغرافياً ضمن امتداد أدرار وتيميمون وعين صالح ، ولهذا انقسمت المنطقة إلى ثلاثة أقاليم هي:

1/ إقليم قورارة² : وينحصر هذا الإقليم بين تسابيت وتبلكوزة.

2/ إقليم توات الوسطى : ويأخذ هذا الإقليم البقعة الجغرافية التي بين تسابيت ورقان .

3/ إقليم تيديكلت³: ويقع هذا الإقليم بين منطقتي رقان وبقارة الزوى شرق عين صالح .

ويُعرف عنها أنها " أرض ذات سباح ، كثيرة الرمال والرياح ، لا تحيط بها جبال ولا أشجار"⁴ ، لُقبت بهذا الاسم - توات- من حوالي سنة 518هـ⁵، حتى بداية القرن الرابع عشر الهجري لتأخذ الاسم المعروف حالياً بأدرار⁶، ويناhez عدد قصورها المائتي قصراً⁷، مؤزعة في الأقاليم الثلاث المذكورة آنفاً .

كما يقصد بالمدارس العتيقة⁸ تلك المدارس الدينية التقليدية الأصيلة أو ما يُعرف بالزوايا و المدارس القرآنية؛ التي انتشرت في ربوع منطقة توات منذ الفتح الإسلامي؛ الذي حظيت به المنطقة على يد عقبة بن نافع الفهري⁹، سنة 46هـ¹⁰، حينها اتسمت المنطقة بحركة عالية من الحركة العلمية، وتمثل ذلك في عكف أهلها على حفظ كتاب الله تعالى، وتنشيط حركة العلم في المدارس العتيقة (الزوايا) المنتشرة انتشار سكانها وعلمائها ، الذين حملوا راية العلم في سائر أقطارها تدریساً، وتألّيفاً في شتى العلوم والمعارف ، وإن دلّ هذا فإنما يدل على حرص التواتيين وحبهم للعلم والقرآن الكريم .

كما تمتاز تلك المدارس بأصالة التعليم وتلقين العلوم الشرعية وشرح مبادئ العقيدة الربانية، وكافة العلوم اللغوية والأدبية، و ما أوجنا أن نشكر فضل هذه المدارس العتيقة، وشيوخها الذين أسهموا في نمو وبناء السرح الإسلامي واللغوي.

ويقول أبو القاسم سعد الله واصفا الجانب العلمي لمنطقة توات : " وهذه المنطقة غنية بتراتها العلمي والديني ، وغنية بعلمائها ومؤلفيها ، وبزواياها ونظمها ، وكذلك غنية بآثارها ومكتباتها"¹¹.

وأول ما نبدأ به النظر في كلام سعد الله هو الحديث عن غنى منطقة توات بالزوايا؛ فهي تزخر بهذا المَعلم الفكري الموجه والمربي للنفوس وتزكيتها، وتعدُّ وسيلة ناجعة في أداء الرسالة العلمية ، كما تعدُّ أيضاً نموذجاً إسلامياً في التعليم والإرشاد لما لها من دور في خدمة الحركة الدينية، وذلك بتعليم القرآن الكريم، وعلوم الشريعة لجميع الشرائح الثقافية، والفئات والأعمار، الذين يتوافدون عليها من أماكن مختلفة - يستفيدون من نظامها الداخلي بحكم بعدهم عن مقار سكنهم - للجلوس إلى الشيوخ المؤسسين لهذه الزوايا والاستماع إليهم .

تلك الزوايا التي غلب عليها الطابع الديني لم يمنع ذلك من وجود حركة لغوية بداخلها ، فقد كانت هذه المعارف الدينية تتخللها وقات لغوية ، كدراسة علامات الإعراب مرة كل أسبوع¹² ، بالإضافة إلى تحفيظ بعض المتون النحوية¹³ ك:الأجرومية، ولامية الأفعال، والألفية ، وملحة الإعراب ، وقطر الندى ، حيث كان يعتمد الطلاب إلى حفظ أجزاء من هذه المتون ، فتعرض على الشيخ ليقوم بشرحها ، مع إعطاء الشواهد المتعلقة بكل بيت ، وتبيين الخلاف النحوي في المسألة إن وُجد¹⁴.

ولا يظن أحد أن هذه الزوايا اقتصر في تدرسيها للنحو على المختصرات المتأخرة وشروحها ، فالأمر لم يقتصر على ذلك ، لأن تبيين الخلاف في المسائل النحوية التي كان يغوص فيها هؤلاء الشيوخ أثناء التعليم تتطلب منهم - وبدون شك- الحديث عن البذور الأولى لهذا الخلاف ، وكيف نشأ؟، وما هي أطرافه؟، وأسبابه؟، وماذا نتج عنه؟، وغالباً ما يدفع ذلك إلى التعمق والبحث، ومراجعة كتب المتقدمين بهدف رفع المستوى ، ومن هنا يتضح لنا أن هذه المجالس العلمية التواتية تطرقت لأهم الأصول النحوية، وأقطاب المدارس النحوية بأرائهم المختلفة.

وقد يكون واضحاً الآن أن هذه الزوايا العلمية أدت دوراً هاماً في مكافحة الأمية ، مع خدمة الشريعة الإسلامية ، فضلاً عن أنها ساعدت على نشاط الحركة اللغوية داخل الناحية التواتية .

طريقة التدريس في المدارس العتيقة :

جرت العادة في إقليم توات عند بلوغ الطفل سن الرابعة أو الخامسة ، أن يلتحق بالمدرسة القرآنية ، أو ما يسمى بالكتاتيب ؛ والكتاتيب هي ذلك المكان الذي يتلقى فيه التلميذ دروسه الأولى ، وتربيته الأساسية على يد الشيخ¹⁵ ، ويُسمى مصطلح الكتاتيب عند التواتة بـ " أفريش"¹⁶ ؛ وهو مصطلح بربري يُطلق عليه في بعض المناطق الجزائرية بالجامع .

وطريقة التدريس تكون على قسمين :

الطريقة الاولى : وهي دراسة الكتاتيب ، أو ما يصطلح عليه بأفريش كما قلنا سابقاً ، ويبدأ الطفل في هذه المرحلة بتعليم وحفظ الحروف الأبجدية (أ- ب - ت - ث-...) ، ويعدها ينتقل إلى حفظ الفاتحة ، فالمعوذتين ، وهكذا بالتسلسل عبر سور القرآن الكريم ، بالإضافة إلى تحفيظ بعض المتون الفقهية ، كمتن ابن عاشر ، والعقري ، والأوجلي ... إلى غير ذلك من المتون المتعارف عليها عند أهل المنطقة ، وفي هذه المرحلة يتدرب الطفل على الخط والإملاء .

الطريقة الثانية : وهي دراسة المدارس أو ما يصطلح عليه بالزوايا ، وهي مرحلة يتوجه إليها التلميذ بعد حفظه للقرآن ، وتعلم بعض المبادئ الفقهية والعربية ، وغالباً ما تكون هذه المدارس ذات نظام داخلي يستفيد منه الطلبة الوافدون عليها بحكم بعدهم عن مقار سكناهم ، وتتمثل مهمة هذه المدارس (الزوايا) في تعليم القرآن وتفسيره وشرحه ، والتفقه في المذهب المالكي ، والعقيدة ، وكذا التطلع في علوم العربية من نحو ، وصرف ، وبلاغة ، وعروض ، وذلك بالاعتكاف على أمات الكتب وشروحها ، ويتم ذلك بقراءة وشرح كل فن وكتبه على حدة ، حتى نهاية الفن ثم كتب الفن الآخر ، وكل ذلك بإشراف الشيوخ ؛ الذين يقومون بشرح هذه الكتب وتفسيرها تفسيراً ارتجالياً .

وتأسيساً على ما سبق ، يبدو جلياً أن منطقة توات شهدت نشاطاً خصباً وازدهاراً واسعاً في العلوم اللغوية ، ولناخذ على سبيل المثال علم العروض ؛ الذي حظي باهتمام بالغ من لدن الشيخ محمد بن أب المزمري ،الذي خلف بصمات على سجل تاريخ المنطقة، لكن ظلّ _ ولفتره طويلة _ في طي النسيان على الرغم من وفرة الإبداع والأعمال التي تحمل في طياتها بوادر الاجتهاد ، فمن هو ابن أب ؟ ، وما هي مكانته العلمية ؟ ، وما هي إسهاماته المبذولة في الدرس العرضي ؟

التعريف بشخص المزمري : هو أبو عبد الله¹⁷ ،محمد بن أب بن أحميد،وفي رواية بن أحمد¹⁸ ،بن عثمان بن أبي بكر¹⁹ المزمري ؛من مواليد 1094هـ الموافق لـ 1683م ،ويظهر ذلك من الرّحلة التي كتبها ابنه ضيف الله²⁰ القائل فيها عن والده:"ولد لست سنين بقيت من القرن الذي قبل هذا"²¹ ،وهو هنا يقصد القرن الحادي عشر ،لأن ضيف الله عاش في القرن الثاني عشر وتوفى في أواخره²² .

وكان مولد محمد بن أب في أحضان قرية أولاد الحاج²³ ،التابعة لمدينة أولف الواقعة جنوب شرق أدرار ،وبها - أي أولاد الحاج - نشأ مولعاً بالعلم ،فتلقى مبادئ علومه الأولى لينتقل بعدها إلى مدينة زاوية كُننة²⁴ وينهل من بحورها العلمية التي جعلت منه منارة في العلم والعمل بين الناس إماماً ومربياً ،فاتخذها - ولفتره طويلة - مسكناً²⁵ ،وظل هناك دارساً ومدرساً ،ليشُد بعدها الرّحال إلى عدة أصقاع عربية وإسلامية طلباً للعلم والمعرفة ، حتى استقرّ به الطواف والجولان بمدينة تيميمون الواقعة شمال أدرار ،التي كان بها لحدّه ومضجعه الأخير²⁶ .

طريقته في التدريس :

لقد عكف محمد المزمري (ت1160^{هـ}) كغيره من المشايخ التواتية المشهود لهم بالكفاءة في آداب اللغة العربية وأصول الدين ، على الاشتغال بالتدريس في المساجد والزوايا ، حيث اتخذ من مدينة زاوية كنتة مرفأً له في هذه المهنة²⁷.

وكانت فُرص التعليم في ذلك الوقت مُتاحة أمام كل الفئات حسب اختلاف الأعمار والأجناس ، حيث يُعلّم الشيخ التلميذ مبادئ القراءة والكتابة أولاً ، ثم حفظ القرآن ثانياً ، ثم بعد ذلك تأتي مرحلة تعليمية أرقى من سابقتها ، وفيها يقوم الشيخ بإلقاء المواد الدينية واللغوية على الطلبة ، مع المطالبة باستيعابها وحفظها قصد تعميم الفائدة²⁸.

وسار المزمري على هذا النهج في طريقته التدريسية ، إلا أنه كان يتميز بصفة الضجر على الطلبة²⁹ ، وذلك كله لحرصه على مستقبلهم ، حيث كان يُرَاعِي الفُدرات العلمية والمكتسبات القبلية لهؤلاء المتعلمين ومستواهم وأعمارهم ، وهذا ما يتطلب انتقاء المادة العلمية كل حسب مستواه وقدراته ، وهي طريقة مفيدة لمراعاتها التدرج في تلقين المادة التعليمية ، وعنها يقول ابن خلدون : "اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلاً ، تُلقى عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن ، هي أصول ذلك الباب ويُقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ، ويُراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه، حتى ينتهي إلى آخر الفن ، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم... وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسأله... هذا وجه التعليم المفيد³⁰.

ومن الشيوخ الذين يشهدون للمزمري بهذه القدرة على امتلاك هذا الأسلوب التعليمي ، تلميذه عبد الرحمان التتيلاني (ت1189^{هـ}) ، الذي يقول : "... حضرتُ إقراءه المرشد المعين فأعجبني تديسه ، فواعده إن رجع لبلده أن أرحل إليه لأخذ عنه ،... وحضرت دروسه في الفقه والنحو واللغة والتفسير ، وكان متقناً مجيداً فطناً يُباحثُ الشراح في مجلسه بأحسن بحث³¹.

كما كان يقوم بتسهيل الصعب في مؤلفاته التي كانت تصبُّ في قالب تعليمي محض ، وذلك عندما يستشكل الأمر على طلابه ، ويظهر لنا ذلك من قوله في بداية شرحه للأبيات المعكوسة: "والباعت على ذلك ما قد بلغني عن بعض الطلبة ممن يُعانيها أنه كان يستشكلها ، حتى أفضى به الحال إلى القدرح في معانيها ، فلما بلغني ما من القدرح أنالها تعين عليّ تنزيها عن ذلك فقلت أنا لها ، فشرعت في تفصيل شرحها بيتاً بيتاً³²، هذا فضلاً عن أنه كان يعمد إلى التيسير في تصانيفه بالإكثار من الأمثلة ، وفي ذلك تراه يورد عدة عباراتٍ توجي لهذه السهولة ، منها قوله: "فأفهم ما ذكرت لك حال كونه مُسهلاً بالأمثلة³³، وقوله أيضاً : " فأفهم ما فصلتُ لك حال كونه مُكَمَّلاً بالأمثلة³⁴.

إسهامه في العروض وموسيقى الشعر: لقد تجرّ في هذا العلم وأتقنه إتقاناً ، الأمر الذي ساعده على تصنيف المصنفات التالية :

01_ روائق الخُلل في ذكر ألقاب الرُحاف والعلل³⁵ : وهي أرجوزة تطرق فيها لأهم الزحافات والعلل العروضية ، ألفها سنة 1126^{هـ} أي 1714^م، وقد جاء ذكرها ضمن المصنفات اللغوية في الجزائر³⁶ ، و جاء في مطلعها : (رجز)

قال عبيدُ ربه مُحَسِّباً محمدُ المزمريُّ نَسَباً

الحمدُ لله الذي قَدَّ مَهْدًا لنا عرُوض دِينِه وأرشدًا

وختمها بقوله:

ثُمَّ صَلَاةِ الْوَّاحِدِ الْعَلِيِّ مَعَ السَّلَامِ الطَّيِّبِ الرَّكِيِّ

عَلَى الرَّسُولِ الْهَاشِمِيِّ الْمُزْتَضَى وَالِيهِ وَالصَّحْبِ مَا صَبَّحَ ضَحَا

02_ دُرُرُ النُّحُورِ فِي فَكِّ الْبُحُورِ³⁷: وهي قصيدة بين فيها كيفية فكِّ الدوائر العروضية ، بدءاً بدائرة المُختلف ، ثم المُؤتلف، و المُشْتَبِه ، بعدها المُجْتَنَّبُ ، وصولاً إلى دائرة المُتَقَنَّ ، أَلْفَهَا سنة 1116 هـ الموافق لـ 1705م.

يقول في مطلعها: (طويل)

بَدَأْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّي مُصَلِّياً عَلَى أَحْمَدَ الْهَادِي الرِّضَا عَلَّمَ الْهُدَى

وَأَصْحَابِهِ وَالْأَكْرَمِينَ وَالِيهِ وَيَعُدُّ فُحْدُ فَكِّ الْبُحُورِ عَلَى الْوَلَاءِ

وقد نالت القصيدة إعجاب أحد العلماء ، حتى قال فيه أبياتاً³⁸.

03_ أسماء البحور وأوزانها³⁹ : وهي قصيدة عقد فيها أسماء البحور، مع تعداد الأوزان الأصلية لكل بحر، والقصيدة بكاملها هي :

بَدَا لِلطَّوِيلِ الطَّيِّبُ الدَّوْقُ تَمَثِيلُ فَعُولُنْ مَفَاعِلُنْ فَعُولُنْ مَفَاعِلُنْ

وَالْمَدِيدُ الْعَرَبُ فِيهِ يَقُولُ الْقَائِلُ فَاعِلَاتُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلَاتُنْ فَاعِلُنْ

وَزِنَ الْبَسِيطُ الَّذِي تَهَوَّاهُ يَا فَاضِلُ مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ

وَإِفْرَاهَا لَهُ النَّعْمَاتُ قَابِلَةٌ مَفَاعِلَتُنْ مَفَاعِلَتُنْ مَفَاعِلَتُنْ

وَبِهَذِهِ اللَّفْظَاتُ يُوزَنُ كَامِلُ مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ

وَ هَزَجُ الشَّعْرِ أَبْدَنُهُ أَقَاوِيلُ مَفَاعِلُنْ مَفَاعِلُنْ مَفَاعِلُنْ

اسْمَعِ لِرَجَزٍ وَرْثُهُ لَا يُشْكَلُ مُسْتَفْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ مَفْعُولَاتُ

رَمَلُهَا فِيهِ الْأَغَانِي مُطْرِبَاتُ فَاعِلَاتُنْ فَاعِلَاتُنْ فَاعِلَاتُ

بَحْرٌ سَرِيعٌ أَحْرَفٌ مَنْظُومَاتُ مُسْتَفْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ مَفْعُولَاتُ

ذُو الْإِنْسِرَاحِ اسْتَحْلَاهُ مَنْ يَعْفَلُ مُسْتَفْعِلُنْ مَفْعَلَاتُ مُسْتَفْعِلُ

خُذْ خَفِيفاً قَدْ قَالَ فِيهِ النَّقَاءُ فَاعِلَاتُنْ مُسْتَفْعِلُنْ لَنْ فَاعِلَاتُ

لِيَبْحَرَ مَهْمَى يُضَارِعُ تَقَاعِيلُ مَفَاعِلُنْ فَاعِلَاتُنْ لَأَنْ مَفَاعِيلُ

قُلْ ذُو اِقْتِصَابٍ لِمَنْ قَدْ يَسْأَلُ مَفْعُولَاتُ مُسْتَفْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُ

كَلِمَاتٌ مُّجْتَنَّبَةٌ مُّسْتَعْدَبَاتٌ مُّسْتَفْعٌ لَّنْ فَاعِلَاتُنْ فَاعِلَاتٌ

زِنِ الْمُتَقَارِبِ بِمَا قَدْ أَقُولُ فَعُولُنْ فَعُولُنْ فَعُولُنْ فَعُولُنْ

04_ مفاتيح البحور⁴⁰ : وهي منظومة في بحور الشعر يقول في مُسْتَهْلِهَا :

وِيَهْذِهِ الْأَجْزَاءُ تَمَّ الْكَامِلُ مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ

إِنَّ سَعْيِي فِي رِضَاكُمْ أَرْمَلُ فَاعِلَاتُنْ فَاعِلَاتُنْ فَاعِلَاتُنْ

وَفِي أَجْزَاءٍ وَافِرُهُمْ تَقُولُ مُفَاعِلَتُنْ مُفَاعِلَتُنْ فَعُولُنْ

05_ أوزان البحور السبع المُهْمَلَات⁴¹ : وهي قصيدة عرض فيها البحور المهملات ،مع إعطاء وزن كل بحر من هذه الأبحر السبع المهمله ،وفحوى القصيدة مايلي :

شَجَانِي مُسْتَطِيلٌ لَهُ نَفْسِي تَمِيلُ مَفَاعِيلُنْ فَعُولُنْ مَفَاعِيلُنْ فَعُولُ

أَنْفُسُ الْقَوْمِ لِلْمَمْتَدِّ تَمِيلُ فَاعِلُنْ فَاعِلَاتُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلَاتُ

صَاحٍ فِي مُتَوَفَّرٍ رَغِبَتْ رَوَاتِكَا فَاعِلَاتِكَ فَاعِلَاتِكَ فَاعِلَاتِكَ

حَبْدًا بَحْرٌ جَدِيدٌ مُسْتَسْهِلٌ فَاعِلَاتُنْ فَاعِلَاتُنْ مُسْتَفْعٌ لُ

عَرِيبٌ لَا تُسَامِيهِ الْمُهْمَلَاتُ مَفَاعِيلُنْ مَفَاعِيلُنْ فَاعِلَاتُ

فِي عَرُوضِ الْمُشَاكِلِ لَاحَ تَمِيلُ فَاعِلَاتُنْ فَاعِلَاتُنْ فَاعِلَاتُنْ فَاعِلَاتُ

هَآكَ مَا ذَارَكُوا بَعْدُ يَا فَاضِلُ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُ

06_ أبيات في البحور المهملات ودوائرها⁴² : وهي نظم في دوائر هذه البحور السبعة المُهْمَلَات، قال فيها : (رجز)

بَيِّنَانٍ قَدْ تَضَمَّنَا مَا يَأْتِي مِنْ أَبْحُرٍ فِي الْخَمْسِ مُهْمَلَاتٍ

فَالْمُسْتَطِيلُ بَعْدَهُ الْمَمْتَدُّ وَالْمُتَوَفَّرُ الْجَدِيدُ يَبْدُو

ثُمَّ الْعَرِيبُ بَعْدَهُ الْمُشَاكِلُ وَالْمُنْتَدِرُ فَخُذْ يَا سَائِلُ

فَالْأَوْلَانِ لَهُمَا الْمُخْتَلِفُ وَالْمُنْتَوَفَّرُ لَهُ الْمُؤْتَلَفُ

وَمَا سِوَى الْأَخِيرِ لِلْمُجْتَلِبِ وَهُوَ لَهُ مُتَّقٍ بِهِ حَبِي

وَحُصِصَتْ دَائِرَةُ الْمُشْتَبِهِ بِأَنْ خَلَّتْ مِنْ مُهْمَلٍ فَاثْتَبِه

والجدير بالذكر هنا ، أنه لا يستطيع أحد أن ينكر أن الخليل بن أحمد الفراهيدي هو مكتشف هذه البحور ، ولا حاجة إلى إعادة تلك الروايات التي تعجُّ بها الكتب والمصادر في نسبة علم العروض للخليل ، لأنها ليست موضوع الدراسة، ويمكن الاكتفاء بالقول إن الفراهيدي هو مكتشف بحور الشعر الخمسة عشر المعروفة⁴³ ، لكن تلميذه الأخفش⁴⁴ استدرك عليه بحراً سماه المتدارك⁴⁵ ، وبذلك أصبح مجموع البحور ستة عشر بحراً جُمعت في قول أحدهم : (طويل)

طَوِيلٌ يَمُدُّ البَسْطُ بِالْوَفْرِ كَامِلٌ وَيَهْزُجُ فِي رَجَزٍ وَيَرْمِلُ مُسْرِعاً

فَسَرَحَ خَفِيفاً ضَارِعاً تَقْتَضِبُ لَنَا مَنِ اجْتَنَّتْ عَنْ قُرْبٍ لِيُتَدْرِكَ مَطْمَعاً

وهي البحور المعروفة والمتداولة منذ عهد الخليل إلى يومنا هذا ، لكن إذا مضينا إلى القول فإنَّ ثَمَّةَ مَلْحَظٍ يَنْبَغِي الإشارة إليه ، وهو أن محمد المزمري وفضل عبقريته ونجاعته في هذا العلم تمكَّن من إيجاد بحرٍ جديدٍ، سماه بحر المضطرب⁴⁶ ، ونظم عليه قصيدة في مدح النبي ﷺ من تسع وثمانين بيتاً ، ومطلعها هو :

صَلِّ يَا إِلَهِي ثُمَّ سَلِّمْ دَائِماً عَلَى خَيْرِ الْأَنْبَاءِ

مَا دَعَاكَ أَوْ لَبَاكَ مُحْرِمٌ قَاصِداً إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ

أَحْمَدُ رَسُولُ اللَّهِ أَحْمَدُ سَيِّدُ الْوَرَى طَهَ الْمُمَجَّدُ

وتفعيلات هذا البحر ، تظهر لنا من خلال تقطيع أحد أبيات القصيدة ، ولنختار على سبيل المثال لا الحصر ، البيت الأخير من القصيدة الذي يقول فيه :

يَا إِلَهَنَا حَمْدًا وَشُكْرًا إِذْ هَدَيْتَنَا سِرًّا وَجَهْرًا

0 / 0 / / 0 / 0 / 0 // 0 // 0 / 0 / 0 / / 0 / 0 // 0 /

فاعلن فعولن فاعلاتن فاعلن فعولن فاعلاتن

كانت تلك أهم إسهامات مدارس توات العتيقة في الدرس العروضي بفضل ما قدّمه الشيخ المزمري ، كما نأمل كذلك بعد كل هذا أن تكون نهاية عملنا هذا بداية لأعمال أخرى تثري المكتبة الجزائرية ، ونلفت النظر بذلك إلى ضرورة الاهتمام بمصنفات علماء وشيوخ تلك المدارس العتيقة الحبيسة في مخازن دور الكتب والمخطوطات التواتية ، والتي أراها جديرة بالتحقيق والدراسة ، لأن ما بقي منها مخطوطاً أكثر وأضعاف ما طبع ونشر ، فلا بد أن تتكاتف الجهود لإخراج هذا التراث من الظلمات إلى النور ، خدمة للتراث اللغوي من جهة ، ومساهمة في كسر جدار الصمت المخيم على المخطوطات من جهة أخرى .

خاتمة : وفي ختام هذه الدراسة نخرج بعدة نتائج أهمها :

1/ إن المدارس العتيقة (الزوايا) كانت منتشرة في منطقة توات انتشار سكانها وعلمائها ، الذين حملوا راية العلم في سائر أقطارها تدريجاً ، وتألّيفاً في شتى العلوم والمعارف ، وإن دلَّ هذا فإنما يدل على حرص التواتيين وحبهم للعلم والقرآن الكريم .

- 2/ إن تلك الزوايا (المدارس العتيقة) التي غلب عليها الطابع الديني كانت تتخللها حركة لغوية بداخلها.
- 3/ شهدت منطقة توات نشاطاً خصباً وازدهاراً واسعاً في العلوم اللغوية عامة ، وفي علم العروض خاصة ؛ وذلك من لدن الشيخ محمد بن أب المزمري ، الذي خَلَفَ بصمات على سجل تاريخ المنطقة في ذلك المجال .
- 4/ عكف محمد بن أب المزمري كغيره من المشايخ التواتية المشهود لهم بالكفاءة في آداب اللغة العربية وأصول الدين.
- 5/ لقد تبخر محمد بن أب في علم العروض وأتقنه إتقاناً ، الأمر الذي ساعده على تصنيف تلك المصنفات المذكورة.
- 6/ إن محمد بن أب المزمري وبفضل عبقريته ونجاعته في علم العروض تمكن من إيجاد بحرٍ جديدٍ، سماه بحر المضطرب ، ونظم عليه قصيدة في مدح النبي ﷺ من تسعٍ وثمانين بيتاً.

الهوامش

- 1 - توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850 إلى 1902م ، أحمد العماري ، منشورات كلية الآداب بفاس ، المغرب ، ط1 ، 1988 ، ص 11 .
- 2 - قورارة : نسبة إلى السبخة التي توجد في المنطقة تدعى ببتيجورارين و منطقة قورارة تطلق على ضواحي تيميمون. يُنظر، توات والأزواد ، محمد الصالح حوتية ، دار الكتاب العربي ، الجزائر ، دط ، 2007 ، ج 1 ، ص 28 ، و توات في مشروع التوسع الفرنسي ، ص 18 .
- 3 - تيديكلت : كلمة بربرية تعني كف اليد أو اليد المفتوحة ، و منطقة تيديكلت تقع مابين منطقة رقان وعين صالح. صفحات من تاريخ منطقة أولف ، عبد المجيد قدي ، أبحاث للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط2 ، 2007 ، ص 18 .
- 4 - نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات ومن دفن فيها من الأولياء والصالحين والعلماء العالمين الثقات، ومعه حديث جابر ، ، أحمد الطاهري، طبعة حجرية ، ص 04.
- 5 - الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات ، محمد باي بلعالم ، دار هومة ، دط، دت ، ج 1 ، ص 09 .
- 6 - أدرار : كلمة بربرية تعني الجبل . الصحراء الكبرى وشواطئها ، إسماعيل العربي ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1983 ، ص 188 .
- 7 - تاريخ ابن خلدون ، المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، ابن خلدون ، تح : خليل شحادة ، مراجعة : سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، دط ، 2000 ، ج 7 ، ص 76 .
- 8 - يُنظر ، المدارس العتيقة وإشعاعها الأدبي والعلمي بالمغرب ، المهدي بن محمد السعيد ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية ، ط1 ، 2006 ، ص 07 وما بعدها .
- 9 - هو عقبة بن نافع الفهري ، من مواليد السنة الأولى قبل الهجرة ، وفي خلافة يزيد بن معاوية ، ولأه سنة 62 هـ على إفريقيا ، توفي رحمه الله بمدينة بسكرة الجزائرية . معجم مشاهير المغاربة ، أبو عمران الشيخ وآخرون ، جامعة الجزائر ، 1995م ، ص 365-366 .
- 10 - النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن التاسع الهجري إلى القرن الرابع عشر ، عبد الحميد بكري ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط2 ، 2007م ، ص 20 .
- 11 - تاريخ الجزائر الثقافي ، ابو القاسم سعد الله ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1998 ، ج 3 ، ص 142 .
- 12 - الدر المنظوم شرح مقدمة ابن أجيروم ، أحمد الطاهري ، مطبعة الواحات ، غرداية ، دت ، ص 116.
- 13 - ينظر، توات والأزواد ، محمد الصالح حوتية ، دار الكتاب العربي ، الجزائر ، دط ، 2007م ، ج 1 ، ص 245 ، 254 ، 259 . و النبذة في تاريخ توات وأعلامها ، ص 54 . و التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11 هـ إلى القرن 14 هـ ، الصديق حاج أحمد، مديرية الثقافة لولاية أدرار ، ط1 ، 2003م ، ص 48 ، و صفحات من تاريخ منطقة أولف ، عبد المجيد قدي ، أبحاث للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط2 ، 2007م ، ص 216 ، و سلسلة النوات في أبرز شخصيات من علماء وصالحى إقليم توات ، مولاي التهامي غيتاوي ، المطبعة الحديثة ، دط، 2005م ، ص 11 .

- 14 - النبذة في تاريخ توات وأعلامها ، ص55 .
- 15 - الكنائب القرآنية في الجزائر ، احمد الأزرق ، دار الغرب للنشر والتوزيع ن دط ، 2002 ، ص 27.
- 16 - أفريش : هي بيت أو غرفة كبيرة تكون دائما بجانب المسجد يؤمها الصبيان (ذكور وإناث) لتعلم كتاب الله تعالى ومبادئ العلوم الفقهية والعربية .
- 17 - ينظر ، جوهرة المعاني في التعريف بعلماء الألف الثاني ، محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطبي، مخطوط بخزانة المطارفة ، أدرار ، ص30 ، ودر الأعلام ، نقلاً عن قطف الزهرات من أخبار علماء توات ، محمد عبد العزيز سيدي عمر ، دار هومة ، الجزائر ، دط ، 2002م ، ص111 .
- 18 - مقدم العي المصروم شرح على نظم ابن أب لأجروم ، محمد بن بادي ، طبعة حجرية ، ص01 ..
- 191919 - ينظر ، النبذة في تاريخ توات وأعلامها ، ص108 ، وقطف الزهرات من أخبار علماء توات ، محمد عبد العزيز سيدي عمر ، دار هومة ، الجزائر ، دط ، 2002م ص111 ، ومحمد بن أب المزمري حياته وآثاره ، ووليه مخطوط شرح روضة النسرين في مسائل التميرين ، تح ، أحمد أبا الصافي جعفري ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط03 ، 2008م ، ص41 ، وصفحات من تاريخ منطقة أولف ، ص81.
- 20 - هو ابن الشيخ المزمري ، وهو كذلك عالم نحوي وفقه .
- 21 - رحلة إلى الديار التواتية لزيارة قبر الوالد ، ضيف الله بن محمد بن أب ، مخطوط بخزانة ابن الوليد وليد ، ص70 .
- 22 - محمد بن أب المزمري ، ص34 .
- 23 - ينظر ، قطف الزهرات من أخبار علماء توات ، ص111 ، والنبذة في تاريخ توات وأعلامها ، ص108 ، و قبيلة فلان في الماضي والحاضر ، محمد باي بلعالم ، دارهومة ، الجزائر دط ، ص297 ، ومحمد بن أب ، ص41 ، وصفحات من تاريخ منطقة أولف ، ص81 ، و الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات ، محمد باي بلعالم ، دار هومة ، دط، ص1 ، ج1 ، ص89 ، و محاضرة حول التعريف بحياة الشيخ الإمام محمد بن أب المزمري ، محمد باي بلعالم ، مخطوط بخزانة الشيخ باي ، أولف ، ص02 ، والتاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11هـ إلى القرن 14هـ ، الصديق حاج أحمد، مديرية الثقافة لولاية أدرار، ط1، 2003م ، ص63.
- 24 - هي مدينة تتوسط بين إقليمي تديكلت وقرارة ، ولذلك أطلق عليها توات الوسطى أو توات .
- 25 - نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات ، ص75 .
- 26 - ينظر، محمد بن أب المزمري ، ص41 ، 42 ، 43 ، وصفحات من تاريخ منطقة أولف، ص81 ، 82 ، والرحلة العلية إلى منطقة توات ، ج1 ص89. وسلسلة التوات في أبرز شخصيات من علماء وصالحي إقليم توات ، ج1 ، ص106 .
- 27 - نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات ، ص75 .
- 28 - إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ، فرج محمود فرج ، أطروحة لنيل دكتوراه الدور الثالث في التاريخ ، جامعة الجزائر ، 1977م ، ص86 .
- 29 - يُنظر : قطف الزهرات من أخبار علماء توات ، ص117 ، ومحمد بن أب المزمري ، ص43 .
- 30 - المقدمة ، ابن خلدون ، نسخة محققة لوانان بإخراج جديد، دار الفكر ، بيروت ، دط ، 2004م ، ص551 ، 552 .
- 31 - يُنظر : قطف الزهرات من أخبار علماء توات ، ص116-117 ، ومحمد بن أب المزمري ، ص43 .
- 32 - الرحلة العلية إلى منطقة توات ، ج1 ، ص109-110 .
- 33 - نيل المراد من لامية ابن المجراد ، محمد بن أب المزمري ، مخطوط بخزانة ابن الوليد ، (ص ب 73) ، أدرار ، ص07 .
- 34 - نفسه ، ص08 .
- 35 - مخطوط بخزانة ابن الوليد وليد ، أدرار .
- 36 - المصنفات اللغوية للأعلام الجزائرية عبر القرون ، مختار بوعناني ن دار هومة ، الجزائر ، دط ، 2001م ، ص81 .
- 37 - مخطوط بخزانة ابن الوليد وليد ، أدرار .
- 38 - الأبيات مخطوطة بخزانة ابن الوليد وليد ، أدرار ، وجاء في بداية هذه الأبيات : ولما وقف العلامة الفقيه النحوي المحقق الأديب النحرير ، سيدي عبد الواحد القدوسي على هذه الأبيات- أي قصيدة فك البحور- قال : لقد أحكم ابن أب فك دوائرنا لِحْفَشَلَقِ بَدَتْ نُجُوماً زواهرا .
- 39 - مخطوطة بالخزانة السابقة .

- 40 - محمد بن أب المزمري ، ص63 .
- 41 - مخطوطة بخزانة ابن الوليد وليد ، أدرار .
- 42 - مخطوطة بخزانة ابن الوليد وليد .
- 43 - هذه البحور هي : الطويل - المديد - البسيط - الوافر - الكامل - الهزج - الرجز - الرمل - السريع - المنسرح - الخفيف - المضارع - المقتضب - المجتث - المتقارب.
- 44 - هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي مولى بني مجاشع، يُكنى بأبي الحسن الأخفش وهو نحوي من نحاة البصرة، تتلمذ على سيبويه رغم كبر سنه، وكان معلماً لوليد الكسائي، وقرأ عليه كتاب سيبويه فوهبه سبعين ديناراً، ألف عدة كتب منها معاني القرآن، المسائل الكبير، توفي عام 215هـ أي 830م، يُنظر، طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر الزبيدي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط2، 1973، ص 72 وما بعدها، و نزهة الألباء في طبقات الأدباء، الأنباري، تح: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، ط3، 1985م، ص 45 .
- 45 - يُنظر، كتاب العروض، الأخفش، تح: سيد الجراوي، مراجعة: محمود مكي، فصول الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 1986. ص 04، و علم العروض والقافية، عبد العزيز عتيق، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2006، ص20 .
- 46 - ينظر، محمد بن أب المزمري، ص54، وصفحات من تاريخ منطقة أولف، ص82، و قبيلة فلان، ص300، و قطف الزهرات من أخبار علماء نوات، ص115، ومحاضرة في التعريف بحياة المزمري، 20، و نوات والأزواد، ج1، ص278، والرحلة العلية إلى منطقة نوات، ج1، ص95، وسلسلة النوات في أبرز علماء نوات، ج3، ص31 .